قبيلة الدواسر في البحرين



بقلم : عيسى بن خليفة آل خليفة

ضوء يشع في التاريخ



في حياة الأمم والشعوب قبائل عريقة لا تزال مستأنفة مسيرتها إلى كل ما هو خير، وكل ما هو حق، وكل ما هو عدل. قبائل تاريخها مليء بالأمجاد غيرت وجه الحياة وستبقى مستمرة وباقية إلى الأبد من أجل هذه الأمة العربية ومن أجل عزتها ورفعتها. ومن هذه القبائل قبيلة "الدواسر" التي تعتبر من القبائل العربية الكبيرة والشهيرة والمعروفة التي لعبت دورا كبيرا ومتميزا في تاريخ منطقة الخليج العربي الحديث، وذلك لما لها من ثقل وطني واقتصادي واجتماعي

وديني، حيث ساهمت في بناء الدول العربية في المنطقة التي بدأت بالظهور قبل قرنين بتحالفها مع القبائل الأخرى، وساعد على تحقيق ذلك امتدادها الواسع في شبه الجزيرة العربية.

فمنذ قيام آل خليفة الكرام بفتح البحرين عام ١٧٨٣م، لعب الدواسر دورا كبيرا في بنائها معهم، وأسهموا في تشييدها وتعميرها وتحالفوا معا بل وتزاوجوا فيما بينهم، وتربطهم علاقات أخوية وطيدة ضاربة جذورها في التاريخ، وكانت مثالا للتلاحم والتعاضد العربي الأصيل، وما يثبت ذلك الكثير من الوقائع والأحداث التي قد تغيب عن الباحثين في التاريخ البحريني.

ففي الوقت الذي كانت تسيطر فيه بريطانيا على المنطقة بحكم الاستعمار، فإنها سعت بشكل أو بآخر إلى تحييد القبائل الأخرى التي ساهمت مع العتوب في بناء البحرين الحديثة وسعت بطرق عديدة إلى إثارة القلاقل والفتن في المجتمع. ولم تكتف بذلك بل سعت إلى محو وجودها من البحرين، وهو ما فعلته بالضبط مع قبيلة الدواسر.

لذلك فإنه من الأهمية بمكان تسليط الضوء على تاريخ وجود قبيلة الدواسر في البحرين، من خلال الاستناد إلى المصادر الموضوعية، والمعلومات الدقيقة.

قبيلة الدواسر.. تاريخ الأمجاد

قبيلة الدواسر من القبائل العربية النجدية في شبه الجزيرة العربية، وهم في النسب فرعان رئيسيان: الأول آل دوسر بن تغلب، والفرع الآخر آل زايد.

ولقد اشتهرت القبيلة بالتجول في نجد إلى حدود العراق. ويقدر عدد بيوتها بـ ٥٠٠ بيت. وتمتد منازلها من وادي الدواسر إلى الحوطة جنوبي الرياض، وتنقسم إلى قسمين: الحضر، وهم الذين يسكنون في قرى الوداعين، والبدو، وينقسمون إلى قسمين: فيئات وشريفات. وهؤلاء البدو يسكنون عادة بين نجد ووادي الدواسر.

وكان الوالي هو المسئول عن تعيين الولاة على المراكز الصغرى الداخلة ضمن ولايته؛ وكان الوالي هو صاحب السلطة، ويمثل الخليفة، وهو المرجع الأول في أمور الإدارة[1].

وفي هذا البحث، سنسلط الضوء على أهم الولاة زمن الخلفاء الراشدين الأربعة، أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، بالقدر الذي أسعفتنا فيه المصادر والمراجع المتاحة.

الهجرة من نجد إلى المشرق العربي

على مر السنين شهدت شبه الجزيرة العربية موجات متتالية من الجفاف نظرا لطبيعتها الصحراوية، وبما أن معظم سكانها من البدو الرحل فقد دفع هذا المناخ القاسي عددا من القبائل العربية للهجرة إلى المنطقة الساحلية الشرقية لشبه الجزيرة العربية ومنهم العتوب الذين ينتمي إليهم آل خليفة وآل صباح والجلاهمة، وذلك بحثا عن الرزق والعيش الأفضل.

وعندما اشتد القحط وضاقت السبل، وزاد الجفاف، دفعت كل هذه الظروف الدواسر للهجرة تدريجيا من نجد إلى المنطقة الشرقية لشبه الجزيرة العربية، حيث استوطنوا جزيرة "الزخنونية"، الواقعة بمحاذاة العقير في الإحساء بالمملكة العربية السعودية، وتبعد بعشرين ميلا جنوب الجنوب الغربي للطرف الجنوبي لجزيرة البحرين الأم، حيث أقاموا فيها لسنوات عدة.

واللافت للانتباه هنا، أن هجرة الدواسر إلى المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية لم تكن منتظمة بل كانت على فترات متقطعة. وللأسف فإن المراجع بهذا الخصوص محدودة، إن لم تكن نادرة لتؤكد أو تؤرخ بالتحديد للفترة التي حدثت فيها هذه الهجرات. لكن الأسلوب الذي تمت به هذه الهجرات يرجح القول بأن تواجد القبيلة في المنطقة كان قد تم قبل فترات ممتدة منذ فتح البحرين، وكانت أعداد منهم قد رحلت إلى شبه جزيرة قطر والزبارة حيث كان يقيم آل خليفة لتبدأ مرحلة جديدة في العلاقات بين الدواسر وآل خليفة ساهمت لاحقا في التحالف والتعاضد لفتح البحرين.

هجرة الدواسر إلى البحرين

مع تطلع آل خليفة وحلفائهم من القبائل العربية في الزبارة إلى فتح جزر البحرين، فقد حرصوا على أن يكون تحالفهم قويا يضم مجموعة من القبائل التي ترتبط معها بعلاقات قوية، وكان من ضمنها بطبيعة الحال قبيلة الدواسر، حيث استعان آل خليفة بأبناء القبيلة، وشاركوا جميعا من داخل شبه جزيرة قطر في فتح البحرين، واستسلمت خلال المعركة الحامية الفارسية في حصن المنامة في ٢٩ يوليو ١٧٨٣م.

قوة ونفوذ

ويذكر أن أبناء قبيلة الدواسر قد أبلوا بلاء حسنا خلال المعارك التي دارت لفتح البحرين، وهو ما جعلهم أصحاب قوة ونفوذ كبيرين في البحرين لاحقا، وبما أن للدواسر تواجد في جزيرة الزخنونية، فقد انتقلوا إلى البحرين مع فتحها. وبذلك لم ينتقل الدواسر إلى البحرين في هجرتهم الأولى من نجد دفعة واحدة، والأرجح أنهم توافدوا في دفعات، أهمها وأكبرها كانت تلك الدفعة التي شاركت في فتح البحرين، واستقرت في البديع وعمرتها لسنين طويلة.

وعلى الرغم من روايات بعض المؤرخين التي تفيد بأن هجرة الدواسر من شبه الجزيرة العربية إلى البحرين كانت عام ١٨٤٥م، إلا أن هناك حقائق تاريخية تشير إلى أن الهجرة حدثت بالفعل قبل هذا التاريخ بكثير، والدليل على ذلك:

أولا: مشاركة قبيلة الدواسر مع آل خليفة والقبائل العربية الأخرى في فتح البحرين.

ثانيا: تواريخ ميلاد كبار رجالات القبيلة مثل أحمد بن سعد الدوسري، المولود في الزلاق بالبحرين سنة ١٢٥٨هـ/١٨٤٢م، وكذلك حسن بن سعد الدوسري، المولود في نفس العام.

ثالثا: الدور الكبير والمؤثر الذي لعبته القبيلة في تاريخ البحرين الحديث وفتح آفاق جديدة وحياة متطورة وتأسيسها لقرية البديع وتعميرها لها.

وبناء على ذلك، فإنه لا يمكن التشكيك في وجود القبيلة بالبحرين الذي يسبق فتحها بفترة، لأنهم انتقلوا من نجد على فترات، ومنهم من استقر في الزحنونية، ومنهم من استقر في الزبارة، وآخرون استقروا في البحرين، أي قبل تاريخ الفتح بمدة.

الدواسر وتأسيس البديع

عندما جاء الدواسر إلى البحرين قبل الفتح الخليفي، أسسوا البديع، وهم من أطلقوا عليها هذا الاسم نسبة لمسقط رأسهم في نجد، حيث توجد قرية (البديع) والتي تقع في أقصى الجنوب في منطقة الأفلاج داخل نجد. وتشتهر القرية بمزارع النخيل، والأرض الزراعية. وكان عدد سكان البديع النجدية حوالي ٣٠٠٠ نسمة كلهم من الدواسر.

ومن التسميات المماثلة أيضا، والتي اهتم بها الدواسر وأكدها كل من لوريمر ومحمود شكري الألوسي في كتابه تاريخ نجد، تسمية أحياء البديع القديمة، حيث كانت من ضمن قرى وادي الدواسر بنجد (الدام) و(البديعة). وعندما أسس الدواسر البديع كانت بها ثلاثة أحياء، أطلقوا عليها: فريق العمامرة، وفريق الدام، وفريق البديعة، على حسب قراهم في نجد، ويتحدث لوريمر عن هذه الأحياء فيقول: "إن فريق البديعة هو أقدمها، ويقع في أقصى جنوب المدينة، وفيه برج ملحوظ".

عمران البديع

تلك كانت المسميات، أما العمران فعندما وفد الدواسر إلى البديع قاموا بتعميرها، فكان لهم ٨٠٠ منزل، والعمامرة ١٠٠، وللهولة ٥٠منزلا، وكان العدد الكلي للسكان ٨٠٠٠ نسمة. ومعظم سكان أحياء البديعة والدام من الدواسر الذين يأتون بمياههم من الآبار في مزارع النخيل من قرى الدراز وبني جمرة.

وأنشأ الدواسر في البديع ثلاث مدارس نهارية يديرها رجال الدين (المطاوعة).

الدواسر وآل خليفة في الزبارة

خلال مجاورة الدواسر لآل خليفة في الزبارة أتقنوا ركوب البحر والأعمال البحرية من غوص وملاحة كغيرهم من القبائل النجدية، الأمر الذي جعلهم يشتغلون بتفوق وبنجاح لافت للانتباه في أعمال البحر عندما سكنوا البديع. وكان من أكثر أعمالهم البحرية، الغوص بحثا عن اللؤلؤ، وكانت لديهم مراكب كثيرة، وكان من بينهم نواخذة كثيرون، اشتغلوا بالتجارة البحرية وامتلكوا المراكب الكبيرة والصغيرة وقد بلغ عددها ١٤٤ مركبا، وأصبح مرفأهم في البديع ثالث أكبر مرفأ في البحرين.

أما عملهم في مجال الزراعة فكان أكثره في مزارع النخيل التي امتلكوها في البديع.

الدواسر والزلاق

إن الحديث عن تأسيس البديع يستدعي إلقاء الضوء على علاقة الدواسر وتواجدهم بالزلاق، حيث أنشأوا بها ٢٠٠ منزل من الطين كلها للدواسر الذين كانوا يعملون في صيد اللؤلؤ.

وتعتبر قرية الزلاق أهم مكان في المرتبة الثانية بالنسبة للدواسر في البحرين، وكانت توجد بها قلعة مهدمة و٢٣ مركبا استعملوا منها لصيد اللؤلؤ. وبذلك يكون عدد منازل الدواسر في البديع والزلاق ١٠٠٠ منزل.

وكان لنشاطهم هذا بطبيعة الحال أثر في ازدهار الحياة الاقتصادية للبحرين ودوران عجلة التطور والنماء في ذلك الوقت، ولذلك نالوا رضا حكامها من آل خليفة الذين وجدوا فيهم مواطنين عاملين ومنتجين محبين للخير ومشهود لهم بالكفاءة والعطاء.

أدوار أخرى للدواسر بعد فتح البحرين

بعد انتهاء الدواسر من تأسيس البديع وتعميرها، توجهوا لممارسة دور أكبر داخل البلاد وفي المنطقة، خاصة مع وجود شعب من دواسر البحرين في منطقة الساحل الإيراني.

ففي عام ١٩٠٩م نشب خلاف بين بريطانيا والدولة العثمانية حول ملكية جزيرة الزخنونية، وهي التي كانت إحدى المحطات الرئيسية للدواسر في هجراتهم المتتالية. وبعد فتح البحرين كان شيوخ الدواسر مع بعض عتوب البحرين يزورون الزخنونية في بعض المناسبات كالصيد مثلا في الشتاء. وقد بنى فيها الشيخ علي بن خليفة آل خليفة قلعة منذ أكثر من ١٣٠ عاما لم يتبق منها الآن سوى أطلال.

وإثر نشوب الخلاف قام الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حاكم البحرين حينئذ بدور كبير في معالجة الخلاف بمساعدة عبدالله بن حسن الدوسري شيخ الدواسر في البحرين، حيث تمكنوا من طرد الحامية التركية التي احتلت الجزيرة، الأمر الذي أشار إليه المقيم السياسي البريطاني في بوشهر اللفتنانت بيرسي كوكس في خطابه إلى حكومة الهند في ٣٠ أبريل ١٩١١م.

الدواسر والحركة الوطنية

شارك شيوخ الدواسر في الحركة الوطنية التي شهدتها البحرين مطلع القرن الماضي في مواجهة المستعمر البريطاني إلى أن تم تشكيل المجلس العرفي، وقام الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حاكم البحرين بتعيين عبدالله بن حسن الدوسري شيخ الدواسر في البحرين عضوا فيه يوم ١٩٢٠/١/٢٢م.

وبهذا السجل التاريخي الحافل والمليء بالإنجازات، أسس الدواسر البديع، وأصبحوا من أكثر القبائل العربية بعد العتوب عددا ونفوذا، وتعتبر قبيلتهم الثانية بين قبائل البحرين من حيث الأهمية السياسية، وهذا يعود بالدرجة الأولى لثرائهم النسبي الذي اكتسبوه من التجارة، واتحاد كلمتهم وطاعتهم لرؤسائهم، وسلوكهم الحسن في البلاد وتاريخهم المزدهر.

الهجرة إلى الدمام

في عام ١٩٢٣م حدث ما خشيت منه قبيلة الدواسر في البحرين، حيث قام الإنجليز بفرض ضرائب عليهم، وعارض الدواسر هذا التدخل حين تعرضوا لضغوط مست مصالحهم. كما كانت لهم مطالب معينة أيدها شيخ البحرين ورفضها المعتمد السياسي البريطاني.

بعد ذلك شهدت البلاد اضطرابات نتيجة للتدخل البريطاني، وتمت معاقبة الدواسر بفرض غرامة مالية قدرها ١٥ ألف روبية على شيخ القبيلة، وتم دفع الغرامة، وعلى إثر ذلك فضلت القبيلة الهجرة. حيث قام الشيخ أحمد الدوسري وعدد كبير من أفراد قبيلته بالهجرة من البحرين إلى الملك عبدالعزيز آل سعود الذي أعطاهم الأراضي في ساحل القطيف والجبيل بالمملكة العربية السعودية، وأمدهم بالسلاح والمال.

لكن طلب الشيخ أحمد الدوسري اتخاذ الدمام سكنا لهم، وتمت الموافقة على طلبه لينتقل ثلثا الدواسر من البحرين إلى هناك، فقد خرج ٦٠٠٠ عائلة من أصل ٨٠٠٠، وبقي الشيخ عيسى بن أحمد الدوسري، ومعه بقية القبيلة في البحرين، ويذكر الشيخ حمد بن عيسى بن راشد الدوسري أن الهجرة تمت في يوم الجمعة ١٢ يوليو ١٩٢٣م.

أسباب هجرة الدواسر إلى الدمام

تتلخص أسباب هجرة الدواسر من البحرين إلى الدمام في محاولة حكومة الهند البريطانية التي كان يتولاها مستشار حكومة البحرين في تطبيق قوانين الهند البريطانية في القضاء والضرائب وإدخال إصلاحات جديدة لأنظمة الغوص والإدارة المالية والشرطة والتعليم. الأمر الذي كان يمس الامتيازات التي كانت تتمتع بها القبيلة في البحرين. وفي نفس الوقت كان قيام الميجر ديلي بانقلاب أبيض على حاكم البحرين الشيخ عيسى بن علي آل خليفة سببا دفعهم للنزوح عن البحرين غضبا لعزل الحاكم فسكنوا الدمام.

ومع قيام الدواسر بالهجرة، توجس البريطانيون من هذه الحركة، خاصة مع قيام الملك عبدالعزيز آل سعود بدعمهم ماليا وتزويدهم بالسلاح، فأصدر المعتمد السياسي البريطاني قرارا بمصادرة كافة أملاك القبيلة بما فيها الجزء المتبقي منها في البحرين وعددهم ١٠٠٠ رجل، وأعطى الدواسر مهلة عشرة أيام ليقرروا فيها مصيرهم وإلا طرد الباقين، كما تم التهديد بقصف البديع إذا لم يعد المهاجرون.

ويبدو أن الإنجليز قد راجعوا موقفهم، ورأوا أن في إبعاد الدواسر عن البحرين فيه إضعاف للحركة الوطنية المناهضة لسياستهم، وبهجرتهم يتم الاستغناء عنهم نهائيا، مما يفت في عضد رجال الحركة الوطنية في البحرين، وفي نفس الوقت كان الإنجليز يخشون من الدعم الكبير الذي كانوا يحظون به من الملك عبدالعزيز، فمارسوا ضغوطا عليه لوقف الدعم للدواسر حتى أصابه المرض في تلك الفترة وبالتحديد في مارس من العام ١٩٢٤م.

البديع أثناء هجرة الدواسر

خلال فترة هجرة الدواسر من البحرين، ظلت البديع مهجورة ولم يسكنها سوى فئة قليلة من السكان. وقد حاول الإنجليز إقناع شيخ البحرين بإسكان أهل القرى المجاورة فيها، وبيعهم بيوت وممتلكات الدواسر من الأراضي والمزارع بأثمان رمزية بغية تكريس هجرتهم وقطع خط الرجعة عليهم كي لا يفكروا أو يتمكنوا من العودة نهائيا، لما في ذلك من خدمة لصالح الإنجليز وتحقيق لأغراضهم وأطماعهم الاستعمارية في البحرين وسائر المنطقة.

ولم يوافق حاكم البحرين على هذه المطالب حرصا منه على عدم التفريط بجزء من سكان البلاد وشعبها، ولسابق فضلهم في فتح البلاد ونشاطهم الاقتصادي من زراعة وتجارة وأعمال غوص، وأيضا استجابة للدواعي القومية وانسجاما مع الخلق العربي الأصيل.

وبسبب هجرة الدواسر من البديع تعطلت حقولها ولم تعد صالحة للزراعة إلا بعد استصلاح، كما إن آبارها غيضت، وآلت مبانيها للخراب. وأفادت بعض الروايات بأن قسما من الدواسر قد عاد إلى البديع بعد عامين من الهجرة أي في عام ١٩٢٥م.

عودة الدواسر إلى البحرين

بعد فترة من الزمن، اكتشف الدواسر من خلال تجريتهم الخاصة بترك البحرين أنهم فقدوا أشياء كثيرة، فقلت مواردهم، وتبددت ثروتهم، خاصة مع قيام الإنجليز بتسريح الغواصين العاملين لديهم في البحرين، ووضعهم في حل من رد الديون إليهم، والسماح لهم بالتعاقد مع نواخذة جدد، وقيامهم بمصادرة

أملاكهم وبيعها، ومنعهم من استخدام مغاصات البحرين والتزود من مياه نبع خور فشت.

لذلك طلب الدواسر من الشيخ قاسم بن مهزع قاضي البحرين التوسط للمساعدة في أمر عودتهم إلى البحرين التي تركوها عام ١٩٢٣م لدى المعتمد السياسي البريطاني، وذلك مما يؤكد عدم انقطاع اتصالاتهم بالقيادات الوطنية في البحرين، ورغبتهم في العودة إليها حيث كان حبل التواصل مستمرا.

وفي سبتمبر عام ١٩٢٦م قام وفد من شيوخ الدواسر بزيارة البحرين منتهزين فرصة تواجد المقيم السياسي في بوشهر، بالبحرين، وكان الوفد يتألف من ثلاثة من شيوخ الدواسر هم: الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم الدوسري، والشيخ حسين بن سعد الدوسري، والشيخ أحمد بن عبدالله بن حسن الدوسري.

والتقى الوفد بحاكم البحرين الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة الذي رحب بهم وبعودتهم. ثم التقى المقيم السياسي الذي وافق على العودة بشروط قاسية رفضها الوفد. ومن ثم تمت العودة بشكلها النهائي إلى موطنهم الأول البحرين في العام ١٩٢٨م.

القيادة البحرينية والدواسر في العهد الإصلاحي لجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة عاهل البلاد المفدى حفظه الله ورعاه ولم الشمل

لاشك أن العهد الإصلاحي الذي أرسى دعائمه حضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة عاهل البلاد المفدى منذ توليه سدة الحكم في البلاد، قد أحدث تغيرات كبيرة ومناخ انفتاحي وتصالحي على كافة المستويات وكانت هناك محاولات لرجوع الدواسر إلى بلدهم الأصلي البحرين، وبالفعل فقد عاد منهم الكثيرون وهم موضع ترحيب من جلالة الملك الذي أشاد في أكثر من مناسبة بمواقفهم الوطنية وبدورهم التاريخي الراسخ والمتميز في بناء مملكة البحرين مع إخوانهم وأشقائهم من المواطنين والعوائل البحرينية. وليس بغريب وجديد بأن يحملوا اسم البحرين، فهم بحرينيون من الأصل ولهم مساكن في البحرين وفي الدمام على نفس القدر، ولهم تجارة ومصالح هنا وهناك، واستثماراتهم الكبيرة وإنجازاتهم الضخمة والتي انعكست ازدهارا على الاقتصاد المحلي، ولهم الدور الريادي في تحريك قاطرة التنمية المحلية في شتى مجالات البناء والإصلاح.

الدواسر في رحاب الأمير خليفة بن سلمان

أثنى صاحب السمو الملكي الأمير خليفة بن سلمان آل خليفة رئيس الوزراء وفي أكثر من مناسبة على الدور الوطني والكبير الذي تقوم به قبيلة الدواسر مع بقية العوائل البحرينية في إبراز ورفعة اسم مملكة البحرين في كافة المحافل، مشيدا بدورها التاريخي في مسيرة التنمية والازدهار، حيث إنهم يشكلون جزءا هاما وعزيزا من النسيج الوطني في مملكة البحرين.

كيف لا وأبناؤهم معروفون بحب العلم والمعرفة ومساهمون بشكل واضح ومؤثر في بناء البحرين الحديثة ورفعتها، ونموها ورقيها، بدءا من أجدادهم الكبار وحتى أبناء ورجال الجيل الحالي. الدواسر رجال ظلوا أوفياء مخلصين لوطنهم وشعبهم.